الأحمدان المصريان القديمان (١)

كانت طريقة من دونوا التاريخ في الدول العربية أن ينقلوا الحوادث بالرواية ويعرضوا لذكر رواتهـا ويصححوا سندها جارين على المثال الذي سار عليه المحدّثون في نقل الأحاديث النبوية ، وكذلك كانت ترجمتهم من ترجموا لهم من الرجال . دامت هذه الطريقة شائعة الى القرن الرابع وبعدئذ توسعوا في أسلوب التأليف وربطوا بين الحوادث ينظرون الى الرجل من بعض نواحيه التي تهمهم فقط ويغفلون عن النواحي التي لها الأثر العظيم في نشأته .

ودخل تعديل كبير في سرد الحوادث السياسية وأصبحوا يعللونهـا ويربطون أولاها بأخراها وما دخل تعديل يذكر في تراجم الرجال مجتزئين ببعض ما يعرف عنهم وأغفلوا في الأكثر ذكر بيوتهم ووالديهم وموالدهم ومناشئهم وبيئاتهم وأساتذتهم وكل ما يهمنا اليوم الاطلاع عليه .

والأرجح ان هذه الطريقة في التعرف الى الرجال هي من مبتكرات العصور الحديثة ، وقد برّز فيها أدباء الافرنج كثيراً وبهم اقتدينا في هذه السبيل ، وترانا اذا ضاقت بنا وجوه الحيلة في معرفة عظماء رجالنا مما دون عنهم نعمد الى التعرف اليهم مما كتبوه ودونوه أو نقل عنهم فنستنبط منه أموراً نستدل بها على حالتهم ، وان كان الاستنباط كثيراً ما يخطئ ، والاستنتاج قد لا يطابق الواقع كل المطابقة ، اذا لم يدعمه استقراء صحيح ووثائق لا مجال لتزييفها .

---

(١) مما حاضرت به في الجامعة الاميركية في القاهرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أليس من الغريب أن لا نعرف عن عشرة عظماء من رجال البلاغة في القرون الثاني والثالث والرابع الا أموراً لم تصور لنا حياتهم التصوير الذي نتطال اليه . فمنهم من لم نعرف مشايخهم الذين أخذوا عنهم العلم مع أنهم من المشهود لهم في فروع امتازوا بها على من عاصرهم، ومنهم من لم نعرف مولدهم ولا أعمارهم ولا ايداتهم ولا بداياتهم بل ولا نوع دراساتهم ، وهذا محمد بن عبد الملك الزيات الذي تولى الوزارة لثلاثة من خلفاء بني العباس أربع عشرة سنة بدون انقطاع وكان يعد من أئمة النحو واللغة كما هو امام في البلاغة لم نعرف مولده ولا شيوخه ولا نوع دراسته التي أخذته حتى جاء منه بليغ يبذُّ البلغاء . وهذا ابن المقفع لم نعرف مشايخه ولا موطنه الأول ولا عمره الا بشيء من الفرضيات والاستنتاجات ، ومثل ذلك يقال في عبد الحميد بن يحيى الكاتب كاتب أمير المؤمنين مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق وواضع أساس الكتابة العربية . وكذلك يقال في عمرو بن مسعدة وسهل بن هرون وابراهيم بن العباس الصولي واحمد بن يوسف الكاتب وغيرهم من عظماء الكتاب الذين ساسوا الممالك ووُزروا لأعظم خلفاء بني العباس .

قدَّمت هذه المقدمة أمام الكلام على عظيمين امتازا ببلاغتهما لأخرج منها الى الاعتذار عن نقصٍ وقع في الترجمة لهما فأنجو من تبعة التقصير ، ولا أقول ان القليل مما أبقته الأيام من كلامهم قد وقفنا على شيء لا بذكر من حياتهم . وهو الى الضعف أقرب ، ولكن ما العمل في أدب أمة ضاع أكثره ، وانا معها بالغنا في تقدير ما سلم من تراث الأجداد لا نرى الباقي منه أكثر من واحد من عشرين وياللأسف ، ذهبت الأيام بالباقي ، وتعاورت على تعفية أثره مصائب الأرض وبلواء السماء . فمن كتبهم ما ضاع في الفتن والحروب وفي الحريق والغريق ، ومنها ما دثر للجهل الذي ضرب سُرادقه قروناً على العرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بفعل العجم ، فكان مصير الكتب المخطوطة القليلة مصير كل شيء في عالم الكون والفساد يتحول وينتقل وينقرض ويبيد ويبلى . ولنا ان ندعي بعد أن رأينا ما حلّ بخزائن كتبنا من النكبات أن فن الطباعة في العصور الأخيرة كان أعظم اختراع خدم العلم وأكبر نعمة على الانسان والانسانية .

وأحدثكم الآن في هذه المسامرة عن رجلين عظيمين كانت لهما صلة نسب بهذه الأرض الطيبة أرض مصر العزيزة ، عنيت بهما احمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون ، وسميّه احمد بن يوسف المعروف بابن الداية مؤرخ بني طولون العظيم . وأبدأ بأحمد بن يوسف الأول لتقدمه في الميلاد ، ولأنه لمع كثيراً في قصر الخليفة العباسي ، وأجمع البلغاء على الاعتراف له بالتقدم في صناعة الكتابة وفي سياسة الملك ، وأرجو ان لا تطالبوني بمزيد على ما تسمعون فان الكلام اذا خلا مما يؤيده من حجج صحيحة يركن اليها يكون أشبه بالقصص الخيالية ، ولا يقوم حق ، ولا تقرر حقيقة ، مع خيال ، وفرض محال .

وبعد فان غاية ما عرف من ترجمة احمد بن يوسف انه احمد بن يوسف ابن القاسم بن صبيح مولى بني عجل من قرية من قرى الكوفة تعرف بريتا . وكان صبيح مولى اسلام اشتراه السري بن بشر العجلي فأعتقه ، وكان صبيح قبطياً من أقباط مصر . أي أن جد احمد كان من موالي مصر فاسترق وحمل الى العراق فأسلم ، وكان من أولاد أولاده هذا الرجل العظيم .

كان احمد وأخوه القاسم شاعرين أديبين وأولادهما جميعاً أهل أدب يقرضون الشعر ويعانون البلاغة ، وكان القاسم جد احمد كاتباً ، وهو على ديوان الغرب أيام بني العباس ، وفي آخر أيام بني أمية . ثم كتب القاسم لعبد الله بن علي عمّ المنصور وكتب يوسف ابنه له أيضاً ، ثم كتب يوسف ليعقوب بن داود وزير المهدي . فأحمد الذي نترجم له كان اذاً عريقاً في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكتابة وكانت لأبيه وجده يد باسطة فيها ، وكتبا لمثل يعقوب بن داود وكان هذا كاتباً مبرزاً ، ومثله لا يرتضي الكتابة الا من كان في صناعته آية ، فأحمد والأمر على ما ذكر عربي النشأة ، بغدادي الدار ، مصري الأصل والتبعة .

وعرف عن احمد أنه كان كاتباً بليغاً يقول الشعر ويجيده ، ومن أظهر صفاته شدة عارضته وقوة بديهته ، وانشاؤه من السهل الممتنع لا تعمل فيه ، وكان متمكناً من الشريعة وأصول الدين ، وذكروا انه كان يحب الطرب ويأنس الى القيان ، مفتوناً بالجمال مستهتراً بلذائذه . أي انه كان رجل جد ساعة الجد ، ورجل طرب ومرح ساعة الفراغ والخلوة ، ولم يؤلف كتاباً ، ولم يذكروا له غير ديوان رسائله ، وقالوا ان له رسالة الخميس ، وأنها من المجمع على جودته .

لما قتل الأمين أراد طاهر بن الحسين متولي كُبْر تلك الفتنة العظيمة أن يكتب الى المأمون فيما انجلت عنه تلك الغمرة ، فأطال الكتّاب ما اقترح عليهم انشاءه ، فلم يرقه ما كتبوا ، وكان هو من عظماء الكتاب ، فقال أريد أخصر من هذا ، فوصف له احمد بن يوسف وموضعه من البلاغه فأحضره لذلك ، فكتب كتاباً دلّ على بعد غوره في السياسة والبلاغة . وقيل ان ذلك كان باقتراح من الفضل بن سهل ، وانه كتب عدة من الكتّاب في هذه المسألة فلم ترضه كتابتهم ، فلما كتب احمد رجّع الفضل نظره فيما كتب ثم قال له : ما أنصفناك ، وأمر له بصلات وقال له : اذا كان غداً فاقعد في الديوان ، وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب الى الآفاق . وبذلك بدأت شهرة احمد في ديوان الخلافة .

هذه أول مرحلة قطعها مترجمنا في طريقه الى المجد ، والمرحلة الثانية وصوله الى المأمون وانضمامه الى رجاله حتى وسدت اليه الوزارة . قالوا ان احمد بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابي خالد الوزير كثيراً ما كان يصف احمد بن يوسف للمأمون ويحمله على منادمته ، وكان طاهر بن الحسين يربده ويزين أمره ، وابراهيم بن المهدي يطربه ويقرظه ، فأمر المأمون احمد بن ابي خالد باحضاره فلما وقف بين يديه تكلم بكلام أعجبه فقال له المأمون : أحسنت وبورك عليك ناطقاً وصامتاً ، ثم قال بعد أن أبلاه واختبره : يا عجبا لأحمد بن يوسف كيف استطاع أن يكتم نفسه .

ومات كاتب المأمون احمد بن ابي خالد فسأل المأمون الحسن بن سهل عن رجل كفؤ يخلفه ، فذكر له أبا جعفر احمد بن يوسف وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازي قائلاً انهما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته وما يرضيه فقال له : اختر لي أحدهما فقال الحسن : ان صبر احمد على الخدمة وجفا لذته قليلاً فهو أحبهما اليّ ، لأنه أعرق في الكتابة وأحسنهما بلاغة وأكثر علماً ، فاستكتبه المأمون أي استوزره .

وغدا احمد يعرض الكتب ويوقع . ويخلفه ابو عباد اذا غاب عن دار المأمون . وكان المأمون اذا حضر أمر يحتاج فيه الى كتاب يُشهر أمره يستكتب احمد . وولى المأمون القاسم أخا احمد خراج السواد فجباه فضلاً مما جباه غيره في سائر أيام المأمون ، فكان المأمون يقول لأحمد : يا أحمد القاسم يجمع ونحن نفرق .

أخذت الدنيا تنهال على احمد ويزيد كل يوم قدره في عين الخليفة . وقد أهدى للمأمون في يوم مهرجان هدية بألف ألف درهم وكتب اليه :

على العبد حق فهو لا شك فاعله ... وان عظم المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نهدي الى الله ماله ... وان كان عنه ذا غنى فهو قابله
ولو كان يهدى للمليك بقدره ... لقصر علّ البحر عنه وناهله
ولكننا نهدي الى من نجلّه ... وان لم يكن في وسعنا ما يشاكله

وأهدى اليه في عيد وكتب اليه : «هذا يوم جرت فيه العادة ، باهداء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العيد للسادة ، وقد أهديت لأمير المؤمنين قليلاً من كثيره عندي » فقال المأمون : عاقل أهدى حسناً .

قلنا ان احمد امتاز بشدة عارضته ، وقوة بديهته . جلس يوماً وهو وزير يقرأ الكتب بين يدي المأمون فمرت قصة أصحاب الصدقات فقال المأمون لأحمد : أنظر في أمرهم قد كثر ضجيجهم فقال : قد نظرت في أمرهم وفورته ولكنهم أهل تعد وظلم ، وبالباب منهم جماعة ، فقال المأمون : أدخلوهم الي فدخلوا ، فناظروه فاتجهت الحجة عليهم ، فقال احمد : هؤلاء ظلموا رسول الله كيف يرضون بعده . قال الله عز وجل : « ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يُعطوا منها اذا هم يسخطون » فعجب المأمون من حسن انتزاعه ، وحضور مراده في وقته ، وقال : صدقت يا احمد ، وأمر باخراجهم .

وكثر طلاب الصدقات بباب المأمون مرة فكتب اليه احمد : « داعي نداك يا أمير المؤمنين ، ومنادي جدواك ، جمعا الوفود ببابك ، يرجون نوالك المعهود ، فمنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يُدلُّ بخدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فان رأى أمير المؤمنين ان ينعشهم بسَيْبه ، ويحقق حسن ظنهم بطَوْله ، فعل ان شاء الله تعالى » . فوقع المأمون : الخير متبع وأبواب الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يسقط الطير حيث يلتقط الحبّ وتغشى منازل الكرماء

فاكتب اسماء من ببابنا منهم ، واحك مراتبهم ، ليصل الى كل رجل قدر استحقاقه ، ولا تكدر معروفنا عندهم بطول الحجاب ، وتأخير الثواب ، فقد قال الشاعر :

فانك لن ترى طرداً لحر كالصاق به طرف الهوان

وهؤلاء الذين أخذوا صدقات المأمون هم غير الفريق الذي كان ردهم أحجى ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لأن الحجة قامت عليهم وثبت انهم مبطلون لما ناظرهم المأمون ، ولكل مسألة حل ، ولكل معضلة شكل .

* * *

ويجدر بنا هنا أن نأتي بنموذجات نستدل بها على أدب احمد بن يوسف ، وعلى تميزه ببلاغته ، فمنها توقيع وقع به الى عامل أخر حمل المال : « قد استبطأك الاغفال ، وأبطرك الاهمال ، فما تُصحب قولك فعلاً ، ولا تتبع وعدك انجازاً ، وقد دافعت بمال نُجِّم لزمك حمله ، حتى وجب عليك مثله ، فاحمل ثلاثة أنجم ليكون ما يتعجل منك أداء ما أُخر عنك ان شاء الله » .

وكتب الى اسحق بن ابراهيم الموصلي وقد زاره ابراهيم بن المهدي : « عندي من ازا عنده ، وحجتنا عليك اعلامنا لك والسلام » .

وكتب الى ابي دلف القاسم بن عيسى وكانت بينهما مودة ، وكانا يتهاديان ويتكاتبان ، ثم ولي ابو دلف الجبل كله ، وأعرض فيما يظهر عن احمد فكتب اليه :

ما على ذا كنا افترقنا بشيراز ولا هكذا عقدنا الاخاء
لم أكن أحسب الأمارة يزدا دبها ذو الوفاء الا صفاء
تطعن الناس بالمثقفة السمر على غدرهم وتنسى الوفاء

وقال :

نفسي على حسراتها موقوفة فوددت لو خرجت من الحسرات
لو في يديَّ حساب أيامي اذاً ألفيته متطلباً لوفاتي
لم أبك حباً للحياة وانما أبكي مخافة أن تطول حياتي

ولأحمد بن يوسف أخبار كثيرة وأشعار وكتب ، ومما قاله في جارية له وقد عتب عليها في شيء سألته الا يفعله ثم فعلت مثله .

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يقود في الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو بداوي من ذلك السقم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أو لا فلا تلم

ومن شعره :

يزين الشعر أفواهاً اذا نطقت بالشعر يوماً وقد يزري بأفواه

قد يرزق المرء لا من حسن حيلته ويُصرف الرزق عن ذي الحيلة الداهي

ما مضّني من غنى يوماً ولا عدم الا وقولي عليه الحمد لله

وقال :

اذا قلت في شيء نعم فأتمه فان نعم دين على الحر واجب

والا فقل لا فاستريح وأرح بها لكيلا يقول الناس انك كاذب

وقال :

اذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي استودعته السر أضيق

هذه مقاطع قليلة من شعره ونموذجات ضئيلة من نثره . ومن أراد التوسع في كلامه فليرجع الى كتابنا (امراء البيان) يجد كلاماً أوسع ومقتبسات أطول .

* * *

سيداتي سادتي .

اليكم حال الوزير احمد بن يوسف الكاتب البغدادي أخذنا منها ما يعرّفنا اليه اجمالاً بقي أن نتكلم عن صنوه وسميه احمد بن يوسف الكاتب المصري . أما بعد فان احمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الدايه لم يشتهر الشهرة التي يستحقها ، ولم يجر له ذكر الا في بعض كتب الرجال وعلى صورة ضئيلة . ومعظم كتب الأدب حتى ما ألفه المصريون منها ، خصوصاً في عهد دولة المماليك ، لم تنقل شيئاً من كلامه الا على الندرة ، مع ان التأليف في ذاك العهد لم يكن غير نقل أقوال المتقدمين في الجملة ، ذلك لأن تآليفه ضاعت . وقديماً سدلت الأيام القناع على كثير من العظماء عقب رحيلهم من الأرض ، اما لفقد ما كتبوا ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واما لقلة أنصارهم ولؤم أعدائهم ، ومنهم من تضاعفت شهرتهم عند عماتهم أكثر من حياتهم ، لسكوت حسادهم عنهم بعد الموت ، ومغالاة أحبابهم فيما صنفوه ودونوه .

ومن عجائب الدهر الا يعد جهابذة الأدب احمد بن يوسف في جملة أعلامه ، وألا يضعوه موضع التكرمة في الصف الأول من رعيل قدماء البلغاء ، ولعل انتقال والده من بغداد الى الفسطاط ونشأته في مصر — في زمن غضب فيه خلفاء بني العباس على مصر وعلى أميرها احمد بن طولون وأبنائه — كان من الدواعي في ضؤولة شهرته ، ومصر أيضاً حتى في عهد الطولونيين وفيه نبغ ابن الداية ، لا تساجي العراق بمنزلتها العلمية ، ولا يتأتى أن يشتهر ابناؤها اشتهار البغداديين ، والى الحضرة في بغداد يحمل كل جميل ، وينعتها الناس بكل حسن ، فتحدث لرجالها شهرة لكثرة ما تردد أسماؤهم على الألسن ، وكيف يتيسر ذلك لأحمد في دولة تعد في عرف السياسة ولاية من ولايات العباسيين ، وولاية خارجة عنهم ، ما هدأ بالهم من ناحيتها حتى قرضوا دولة المتغلبين عليها .

كان يوسف بن ابراهيم والد مترجمنا ولد داية ابن المهدي العباسي فاشتهر بابن الداية ، وهو رضيع ابراهيم بن المهدي وصاحبه ، وكان من أهل الأدب والفضل ، معدوداً من جلة الكتاب . صنف في أخبار ابراهيم بن المهدي كتاباً كما صنف في أخبار المتطببين وغير ذلك ، وذكر اسماء من روى عنهم ورووا عنه وممن روى عنهم من غير المسلمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وعيسى بن حكيم الطبيب . وانتقل يوسف من بغداد الى مصر وما عرفت سنة انتقاله ولا سبب هجرته ، وجاء دمشق في سنة ٢٢٥ ، ولعله في هذه السنة كان رحيله من العراق الى الديار المصرية ، وكان من أهل المروآت التامة والعصبيات العظيمة ، يُجري على عشرات من أهل الستر والأشراف في مدينة الفسطاط .

ولما حبسه احمد بن طولون (في بعض داره وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه فكاد ستره ينهتك لخوف شمله عليه) جاء جماعة من أبناء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الستر الى احمد بن طولون وطلبوا اليه ان يقتلهم اذا كان معتزماً على قتله وقالوا ان لم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا اليه ولا وقفوا بباب غيره . وكان ذلك سبب رضا احمد بن طولون عن يوسف بن ابراهيم (راجع سيرة احمد بن طولون للبلوي) .

وفي الساعة التي توفي فيها يوسف بن ابراهيم بعث احمد بن طولون أيضاً بخدم فهاجموا الدار وطالبوا بكتبه (مقدرين ان يجدوا كتاباً من أحد من بغداد) فحملوا صندوقين وقبضوا على احمد وعلى أخيه وصاروا بهما الى داره فأدخلوهما اليه وهو جالس وبين يديه رجل من أشراف الطالبيين فأمر بفتح احد الصندوقين وأدخل خادم يده فوقع على دفتر جرايات على الأشراف وغيرهم فأخذ الدفتر بيده وتصفحه وكان جيد الاستخراج فوجد اسم الطالبي في الجرابة فقال له واحمد يسمع : كانت عليك جرابة ليوسف بن ابراهيم . فقال له : نعم أيها الأمير ! دخلت هذه المدينة وأنا مُملِق فأجرى عليّ في كل سنة مائتي دينار أسوة بابن الأرقط والعقيقي وغيرهما ، ثم امتلأت يداي بطَوْلِ الأمير فاستعفيت منها .

ذاك الأب النجيب أنشأ هذا الولد النجيب احمد بن يوسف ، فهو نجيب وابن نجيب ، نشأ في بيت خير ومروءة وأدب ، وجاء كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، ومؤرخاً عظيماً ، وطبيباً نطاسياً ، وعالماً بالرياضيات والنجوم ، حتى عرف بالعراق بالمهندس المصري ، كما عرف في مصر بالكاتب ، ووصفوه (مجسطي أقليدسي) وما عرفنا أي نوع من الكتابة كان يتولاه للدولة الطولونية ، ثم انا لم نعرف شيوخه ولا سنة ولادته ولا أصل أمه ولا زمن اتصاله بأحمد بن طولون ، وما نظن الا انه كان شاباً مدركاً في آخر ولايته وحجتنا ان ابن طولون لما بعث بخدمه في الساعة التي توفي فيها يوسف بن ابراهيم وقبضوا على احمد وعلى أخيه وصاروا بهما الى داره ، ان احمد كان شاباً يوم وفاة والده ، ولو كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طفلاً لتركوه وشأنه يلعب مع الصبيان ولما حملوه الى ابن طولون، وكان هذا أبداً يتخوف من يوسف بن ابراهيم لأنه كان يقدر ان هواه بالضرورة مع بني العباس ، وقد لا يستنكف من نقل أخبار ابن طولون الى أصحاب الدولة في بغداد ، وكان من أهم ما يخشاه ابن طولون أن يعرف العباسيون أخباره وأسراره ، ولذلك أحاط البلاد المصرية في أيامه بشبكة من الرقباء لتخوفه من كل غريب يهبط مصر ، فكيف لا يحسب حساباً لمقام رجل بين ظهرانيه هو من أعظم صنائع العباسيين ، ومن سمو المدارك بحيث لا تفوته حركة من حركاته ولا سكنة من سكناته .

كانت الفسطاط ثم القطائع على عهد بني طولون ثاني بغداد في المرتبة العلمية والاجتماعية ، قصدها من الآفاق كثير من أهل العلم لما عرفوا ان احمد بن طولون « كان متديناً يحب العلماء وأهل الدين » وانه على جانب من العلم والأدب ، واتصل احمد بن يوسف به او بأولاده ، واحمد على كل حال كان فتى في أيام مؤسس الدولة الطولونية . وقد مات ابن طولون سنة سبعين ومائتين ومات احمد بن يوسف في سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة . وظن ابن عساكر ان وفاته كانت في سنة أربعين وثلاثمائة ، ولا يعقل ان يكون احمد بن يوسف تام الأدوات في أيام احمد بن طولون بحيث يصلح للدخول في زمرة رجاله ، وعلى كل حال عرفه في أخريات أيامه ثم اختلط برجاله وقواده وثقاته ونقل عنهم أخباره وهو في مقتبل أيامه ، فدونها كما دون سيرة ابنه ابي الجيش خمارويه وسيرة هارون ابن ابي الجيش وأخبار غلمان بني طولون أي القائمين بأمر دولتهم . والغالب ان هذه الكتب فقد أكثرها في نكبة الطولونيين كما فقد كتابه الثمرة الذي فسره احمد وأصله لبطليموس ، وضاع كتابه مختصر المنطق الذي ألفه لعلي ابن عيسى عظيم وزراء بني العباس في عصره ، وكذلك كتاب ترجمته وكتاب أخبار المنجمين وكتاب الطبيخ وغيره ورأينا بعض المؤلفين كالبلوي مؤلف سيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آل طولون ينقل عن سيرة احمد بن طولون لأحمد بن يوسف الكاتب ورأينا غيره ينقل عنه أيضاً .

ضاعت معظم هذه الكتب ، وربما كانت لنكبة الطولونيين صلة بضياعها ، لأن فيها ولا شك طائفة عظيمة من محاسنهم ، ومحاسنهم مما يشق على العباسيين نشره وتخليده ، ولم يصل الينا من ثلاثة وعشرين مصنفاً من تأليف ابن الداية سوى قطعة من سيرة احمد بن طولون كتبها ابن الداية الا انها مختصرة مبتورة سطت عليها يد المسخ فحيفتها واختلطت ولم يظهر فيها حقيقة تأليفه ، هذا الى ما حملت من أغلاط شائنة بطول الأيام وتعاور أيدي النساخ على كلامه ، والمؤلفين الذين جوزوا اختصاره على هواهم . ومما أبقت الأيام عليه أيضاً قطعة من كتاب السياسة لأفلاطون استخرجها احمد بن يوسف قاصداً فيها الرد على رجل متعصب للفرس بفضلهم على اليونانيين ، وأهم ما أبقت الأيام عليه من كل ما خطته أنامل احمد ابن يوسف من الكتب والأسفار والرسائل كتيّب او رسالة اسمها كتاب (المكافأة) وهو بأسلوبه ورشاقة ألفاظه وبديع نسجه من أبلغ ما كتبت العرب في القصص ، يسلك مع ابن المقفع في سلك واحد ، ولولا هذه الورقات التي عثر عليها من كتاب (المكافأة) لما استدللنا على أنه أبلغ كاتب نشأ في وادي النيل في الدهر الغابر ، وحكمنا هذا مبني على من وصل الينا خبره وأثره .

ومن المكافأة أدركنا كثرة امتزاج احمد برجال الدولة الطولونية وعلمائهم ومهندسيهم ورياضييهم وقوادهم ، وبه تمثلنا صورة ضئيلة من مصر في أيامه ، وسياسة ابن طولون وادارته ، وبه وقفنا على أشياء قد لا يتعرض لها من ترجموا له . فقد قال في علي المتطبب المعروف بالدبدان انه « كان حسن المعرفة لكتب أفلاطون ورموزه ومبرزاً في الطب » وحدث عن هارون بن ملول غير مرة والغالب أنه كان من أعيان البلاد . ونقل عن احمد بن دعيم قال وهذا « كان من خاصة قواد احمد بن طولون بعد أن ترك الديوان وحسن انقطاعه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى الله » وعن موسى بن مصلح المعروف بأبي مصلح « وكان هذا من الثقات عند احمد بن طولون » وعن ابي عبد الله الواسطي كاتب احمد بن طولون وعن محمد بن يزيد « وكان حسن التفتش سديد الرأي » وعن احمد بن محمد المعروف بابن ابي عصمة كاتب احمد بن طغان وعن احمد بن أيمن كاتب احمد بن طولون ، وعن احمد بن ابي عمران الفقيه وعن عمر بن يزيد البرقي « وكان جميل المذهب » وعن ابي كامل شجاع بن أسلم الخاسب . ومعظم هؤلاء الرواة لا ذكر لهم فيما بين أيدينا من كتب الرجال . روى احمد بن يوسف في كتابه المكافأة ما سمعه ممن تقدمه وما شاهده في عصره وساق ثنتين وخمسين قصة في المكافأة على القبيح والمكافأة على الحسن « رجاء أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير وتطلب المعارفة في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وابعادها عن سورة الانتقام في القبيح ، وقد قالوا : الخير بالخير والبادي أخير ، والشر بالشر والبادي أظلم » .

ولما دخل محمد بن سليمان مصر في سنة ٢٩٢ للقضاء على الدولة الطولونية كان احمد بن يوسف الكاتب يحاذره ويخشى بأسه وكان يستدعي « الواحد بعد الآخر من أسباب الطولونية ويستصفي ماله بالسوط وعظيم الاخافة » وهذا بعد ان كان هو وابوه يوسف بن ابراهيم في حياة احمد بن طولون من المشتبه بهم لأن هواهم مع بني العباس وما ندري وهو الذي جمع سيرة الدولة الطولونية ورجالها ان كانوا بعد راضين عما كتب أم غير راضين . وكان احمد بن يوسف صاحب مزارع انتقلت اليه من أبيه ومنها ما كان على مقربة من المحلة الكبرى كما فهم ذلك من كتاب المكافأة .

وها كم الآن قصتين تنمان عن أدب ابن الداية وعن حاله وحالة مصر في زمنه والقصة الأولى « ولما استفحل أمر ابن الخليج انحاز عنه جيش مصر الى الاسكندرية ، وخلا الفسطاط منهم ، وكنتُ بمدينة أهناس ، واضطربت النواحي ، واحتجت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى مشاهدة الفسطاط ، فتخفرت بأربعة نفر من القيسية ، دفعت اليهم عشرين ديناراً ، وخرجت معهم فأحسنوا العشرة ، وأجملوا الصحبة . وكنا لا نجتاز بحيّ ولا جماعة الا كفونا مؤنة كلامهم وصدفوا عنا بأسيهم ، ولم نزل كذلك دأبنا حتى بلغنا قصر الجيزة . فأقبلت رِعلة من الأعراب قدّرتها برأي العين خمسين فارساً كانت من غير حيهم ، فصممت نحونا برماحها ، وعملت على نهبنا وقتلنا ، ورأيت الموت في أسنتهم ، وأحسن الأربعة الذين تخفرنا بهم لقاءها والتضرع اليهم ، وناشدوهم ألا يخفروا ذمتهم ، وأجملوا التأتي حتى انصرفوا . وجددنا في السير حتى انتهينا الى حيّ المخفرين لنا . فقال المخفرون : قد بلغت الى من تأمنه فحط رحالك ، فما تستقل دوابك الزيادة على هذا السير . فنزلت وتقدمت الى الغلمان في اطعامهم ، ولم أجد للطعام مساغاً من فرط ما لحقني من الرّوع ، وعملت في المخفرين هذه الأبيات :

جزى الله خيراً معشراً حقنوا دمي ... وقد شُرّعت نحوي المثقفة السمر
دراهمهم مبذولة لضعيفهم ... وأعراضهم من دونها القفر والستر
اذا ما أغاروا واستباحوا غنيمة ... أغار عليهم في رحالهم الشكر
وان نزلوا قطراً من الأرض شاسعاً ... فما ضره الا يكون بها قَطر

فلحظني واحد منهم وأنا أكتبها ، فظن بي أني أكتب الى السلطان فأشتكي ما كان من الفرسان الذين لقونا بقصر الجيزة ، فقال : قد سلّمك الله من أولئك القوم ، وقد أحسنوا الينا في حسن الاجابة لنا ، فلا تكتب فيهم بشيء . فقلت : والله ما كتبت فيهم ولا في غيرهم الى السلطان بشيء ، فقال لي شيخ المخفرين وقد دنا مني : فما تكتب ؟ قلت : أكتب أبياتاً مدحتكم فيها . فقال : وانك لتقرض الشعر . قلت : نعم ، قال : أنشدني على اسم الله ، فأنشدته اياها . فقال : برّك الله ووصلك . ثم صاح بالثلاثة ، فلما اجتمعوا أنشدهم اياها فما خرم شهد الله حرفاً واحداً فعجبت من حفظه لها ، ولم أعد عليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حرفاً منها ، وتبينت الفرح في سائرهم وحفظوها بأجمعهم . ثم صاح بهم الشيخ : ما تنتظرون أرْحِضوا السوءة عنكم ، فأدخلوا أيديهم في جيوبهم وجمعوا شيئاً أخذه الشيخ منهم . ثم قال لي : قد شكرنا صنيعتكَ والله لا نجمع بين شعرك ووفرك ، ووضع العشرين ديناراً بين يدي ، فأكبرت ذلك وأعظمته فقالوا لي : الصواب ألا يعلم بها عشيرتنا فيرجع عليك منها أكثر مما خفته ممن لقيك بقصر الجيزة . وركبت فسرت مع جمع كثير منهم ، وهم ينشدون تلك الأبيات ، فالتمست أن يقبلوا مني براً فلم أصل الى ذلك ، ورأوا أن الشعر أحسن موقعاً مما ملكته » .

أما القصة الثانية فهي : « وطالبني بعض عمال الخراج بمصر بمال زاد على ما في حاصلي ، فاحتجت الى معاملة بعض التجار عليه ، فدللت على رجل من أهل الشام يعامل برهون ، فصار اليَّ ، وانا في بيت المال ، منه شيخ حسن الصورة ، جميل اللقاء فقال : الى كم تحتاج ؟ قلت : الى مائتي دينار . فأخرج من كمه مالاً فوزنه واستزاد من غلام كان معه دنانير حتى أكمل المائتين . ثم سلمها اليَّ واقتضاني خطاً بها وقال : قد كفيت مؤونة الرَّهن . فقلت : فكيف أكتب الخط ؟ قال : بمائتي دينار كما أعطيتك . فقلت له : سبيل المعاملة غير هذا . فقال : والله لا قبلت منك ربحاً فيها ، ولو وهبتها لك لكان من أصغر حقوقك عليَّ . ثم قال لي : تعرفني ؟ قلت : لا . قال : ركبت مركباً أريد الفسطاط من تنيس وحملت فيه تجارة لي ما كنت أملك غيرها ، حتى اذا بلغت المحلة ووازيت ضياعاً كانت في يدك ، كُسِر بنا وغرق جميع ما أملكه ، وسلمت بحشاشة نفسي فجلست على الشط أبكي وأنتحب ، فأقبلت في جماعة معك فسألتني عن حالي فأخبرتك بها ، فبثثت في حشد من بغوص على المركب وما فيه ، وحططتَ على الشط ، فأخرجوا يزاً كان لي وتلف ما سواه ، واستحلفتني على ما ذهب لي فأخبرتك به ، وكانت قيمته سبعين ديناراً ، فقسمتها لي على وكلائك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكتابك ، فلما حصلت لي أعطيتني دنانير من عندك وقلت لي : هـذا أرش ما لحقك في الثياب ، وأمرت ان يكتب لي الى تنّيس ، وكتبت الى جماعة معامليك بتنّيس بما لحقني وبعونتي على أمري ، فرجع بك الي ما أملك ، وكسبت جاهاً بتنّيس تضاعف مالي به ، وحسنت معه حالي . وأخذ خطي بالمال وانصرف » .

أخلنا الآن وقفنا بعض الوقوف على ترجمة الأحمدين المصريين من القدماء ورأينا انهما كانا من العظماء بأدبهما وبأخلاقهما ، وأنهما يتشابهان من وجوه كثيرة ، وربما كان احمد بن يوسف المصري أعلم من سميه البغدادي ، وكان هذا أوصل الى المأمون فأعجب بأدبه ، وذاك اتصل بالطولونيين ، وهم ما خرجوا عن كونهم أتراكاً من بعض عمال الخلافة ، ولا شك ان للبيئة دخلاً كبيراً في تعظيم أقدار الرجال .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net